

السَّماع بين البصريين والكوفيين (دراسة تطبيقية في بعض القراءات القرآنية)

طالبة دكتوراه - كلية الدراسات العليا
جامعة البحر الأحمر
أستاذ مشارك - قسم اللغة العربية
جامعة البحر الأحمر

أ.حليمة محمد علي عثمان

د. صلاح رمضان عبد الله عبد البين

مستخلص:

تناولت هذه الورقة البحثية، أصلاً مُهماً من أصول النحو العربي والتي استنبطوا منها لغتهم وقواعدهم في مقارنة علمية بين البصريين والكوفيين، وهذا الأصل هو «السَّماع» وقد ارتكزت الدراسة على مقدمة وتعريف للسَّماع لغة واصطلاحاً مع تحديد أنواعه، ثم تناولت المدرستان السَّماع مستعينةً في ذلك بالقرآن وقراءاته كأول مصدر اعتمد عليه علماء النحو؛ لتطبيق قواعدهم ثم مقارنة بين المدرستين في بعض المسائل الخلافية، مُحددةً في ذلك طرق الأخذ والهدف من هذه الدراسة، الوقوف على أهم المسائل التي اعتمدت عليها المدرستان في السماع كذلك التعرف على الأثر من القراءات وثماره في القاعدة النحوية وأبرز الجهود التي بذلها علماؤنا في ارساء علم النحو. تكمن أهميتها من أهمية القراءات القرآنية في إثراء اللغة العربية كذلك تكمن في أهمية المعنى من خلال تفسير الظواهر اللغوية، كذلك من أهمية القرآن الكريم وعظمتها. أتبع الباحثان، المنهج الوصفي التحليلي والتاريخي. وتوصل الباحثان إلى النتائج الآتية أهمها: إنَّ القرآن الكريم كان الباعث والمحرك للدراسات اللغوية. قد أسهم الخلاف النحوي في السَّماع في تطوّر النحو العربي. تشدّد البصريون في تطبيق شروط الفصاحة. نموذج (العطف على الضمير المجرور دون إعادة حرف الجر)، وكذلك قاعدة نصب الفعل المضارع المقترن بإلقاء السببية بعد الرجاء حملاً على التمني.

الكلمات المفتاحية: السَّماع، البصرة، الكوفة، القراءات

Hearing between the schools of Basra and Kufa

(An applied study on some readings of the Holy Qur'an)

A.Halima Mohammed Ali Osman

D.Salah Ramadan Abdullah Abdlbaien

Abstract:

This research paper dealt with an important origin of Arabic grammar and a tributary of the development of the Arabic language. To play its role in meeting society's requirements to keep pace with development. The second principle that grammarians resorted to is analogy. It began with the introduction, then the definition of analogy linguistically and terminologically, followed by a summary of the history of its origin and the definition of its types and divisions, supported by examples from the Qur'an and its readings, explaining in it the impact of reading

on analogical issues that depend on logic and reason, followed by visual and Kufic analogy, then controversial issues were discussed. Between them and clarifying the method of taking and contrasting, especially since the Basrans are a controlled school and Kufa is known as a school of listening, then the issues between them are raised and the reasonable is extracted from what is transmitted, and it is concluded with some results, the most important of which is that the analogy began visually and ended visually, and an example of this is that the Basrans see that (in) is a factor in the subject and the predicate, unlike the Kufans. They see it as operating in the subject, so it becomes accusative and the predicate is nominative as it used to be nominative. Then clarify the index of references.

key words:Hearing ، Basra ، Kufa, readings of the Holy Qur'an.

مقدمة :

الحمدُ لله الذي تفضّل علينا وعلمنا ممّا لم نكنْ نعلمُ والصلاةُ والسلامُ على رسولنا الكريم سيّد الخلق محمد بن عبد الله وآله وصحبه أجمعين .

يُعدُّ علمُ النحو من أعظم العلوم العربية أصالةً وأوسعها مادةً وأغزرها تراثاً ، وما الكلامُ العربيُّ إلاّ تراثٌ قبائل شتى انتشرت في الجزيرة العربية . وقد كانت لهذه القبائل العربية أصولاً اعتمدوا عليها في بناء قواعدهم وأولها «السّماع» هو المقدّمُ فبعضُ اللغات لا تؤخذ إلاّ به ويعتبرُ الأساسُ الذي اعتمدَ عليه العلماءُ والنحاةُ الأوائل في الاستدلال والاحتجاج .

إنّ السّماعُ هو الكلامُ الفصيحُ الذي نُقلَ عنّ يثقون ببلاغتهم وفصاحتهم . لكن طال الفسادُ نُظّمه ونثره؛ لذلك احتجوا بكل هذه المصادر جاعلين القرآنَ الكريمَ المصدرَ الرئيس ، لأنّه الأوثق والأفصح والأصحّ ، ذلك حفاظاً على ألفاظه من الخطأ واللحن ، لهذا حرص أهلُ البصرة على انتقاء الأساليب الفصيحة والشواهد الصحيحة؛ لأنّهم أرادوا أن تكون الأسسُ قويّةً ، فكان لزاماً عليهم أن تكون شواهدُها متواترةً.

كذلك تناول أهلُ الكوفة أصلَ السّماع لكنّهم توسعوا فيه وقبلوا جميع ما رُوي من كلام العرب وسمعوا من القبائل التي أخذ عنها البصريون ، كذلك من القبائل التي رفض البصريون الأخذ عنها . منها سكان البراري ممّن كان يسكن في أطرافهم المجاورة (السيوطي، المزهر في علوم العربية وأنواعها، ج1/59). كذلك أخذوا عن هذه القبائل، تغلب وبكر لمخاطبتهما الفرس (السيوطي، المزهر، ج1/211 و212) وعبد قيس لمخاطبتها الهند والفرس ، كذلك عشيرة الحُطّمة من بني عبد قيس (شوقي ضيف المدارس لنحوية، ص160).

هكذا تغيّر منهجُ وأسلوبُ المدرستين ، ومن هنا جاء الاختلاف في التناول وقامت بينهما مناظرات وهذا ما جعل للنحو وجهاً جديداً، حيث ظهرتُ ثماره وآثاره في ذلك العلم الذي خلفه علماء النحو مما أثرى اللغة العربية .

أولاً : أهمية البحث :

1. معرفته الأصول التي بنى عليها العلماء قواعدهم.
2. دور وأهمية السماع ومصادره في تقعيد القاعدة النحوية.
3. معرفة الطرق والمنهج لهذا الأصل.
4. المسائل التي اختلفت فيها المدرستان تطبيق في بعض القراءات القرآنية.
5. يفتح البحث الآفاق للمختصين في الدراسات النحوية في إبراز دور القراءات وأثرها في القاعدة النحوية .

ثانياً : أهداف البحث :

1. التعريف بالخلاف النحوي بين المدرستين في قضية السماع .
2. الوقوف على أهم المسائل التي اعتمدت عليها المدرستان في السماع .
3. التعرف على الأثر من القراءات وثماره في القاعدة،
4. إبراز الجهود التي بذلها علماءنا في إرساء علم النحو وعلم القراءات وتوطيد أركانه وبناء قواعده على أسس ثابتة .
5. كلتا المدرستين اجتهدت لبلوغ مرام مشترك .

ثالثاً: أسئلة البحث :

1. أيعد السماع الأصل الأول من مصادر اللغة العربية؟
2. كيف تناولت المدرستان قضية السماع في تطبيق القاعدة النحوية؟
3. هل كان للخلاف أثر وثمره في القاعدة النحوية؟
4. ما موقف المدرستين من القرآن الكريم وقراءاته والذي يُعد المصدر الأول من مصادر اللغة ؟

تعريف السماع لغة واصطلاحاً:

تعريفه لغة:

يُقَالُ «سَمِعَهُ يَسْمَعُهُ سَمْعًا وَسَمِعًا وَسَمَاعًا وَسَمَاعِيَةً» يقول اللحيان : وقال بعضهم : السمع (بالفتح) مصدرٌ و(بالكسر) اسم .^(١) وله في اللغة معاني عديدة. الأول: (الأذن).^(٢) وفي ذلك قوله تعالى: (حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)^(٣) ويكون السَمْعُ للواحد والجمع كما في الآية السابقة، لأنه في الأصل مصدر والجمع إسماعٌ. أما الثاني، حيثُ الأذن ، أي ، الإحساس» وهو قوة فيها ، بها تدرك الأصوات»^(٤) وفي ذلك يقول تعالى: (أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)^(٥) أما الثالث، الذكر المسموع الحسن الجميل، وقيل أيضاً ذلك بالكسر (السمع).^(٦)

أما السَمَاعُ: فقد تعددت دلالاته وأصبحت له استعمالات كثيرة منها:

- أولاً : ما سمعت به فشاء وتكلم به ، يُقال : هذا قبيحٌ في السَمَاعِ وحسنٌ في السَمَاعِ إذا تكلم به .
ويقال: هذا أمرٌ ذو سماع، أما حسنٌ إما قبيحٌ.^(٧)

تعريف السَّماع اصطلاحاً:

هو ما تُبِتَّ في كلام ممن يُوثقُ بفصاحته فشمَلَ كلامُ الله تعالى وهو القرآنُ الكريم ، وكلامُ نبينا محمد عليه الصلاة والسلام وكلامُ العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أنْ فسدتْ الألسنة لكثرة المولدين .⁽⁸⁾

أهميته :

العوامل التي جعلت اللغويين يلحون في الاعتداد به من كثرة مصادرهم.

طرقُ السماع :

اتخذ النحاةُ واللغويون طريقين: الطريق الأول: الرواية والنقل⁽⁹⁾، يرى الباحثان: ونعني بذلك كلما وصلهم بغير طريقة المشافهة في أثناء عصر التدوين، وهنا لا وجود ودور للعقل فالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر وأقوال العرب يُنقل كما هو. يقول الأنباري في ذلك: «أعلم أن النقل هو الكلام العربي الفصيح المنقول النقل الصحيح الخارج عن حدِّ القلة إلى الكثرة». ⁽¹⁰⁾

1- الطريق الثاني (أ): المشافهة وقد كان ذلك عبر:

1- الذهاب إلى البادية لتلقي اللغة عن الأعراب أنفسهم.⁽¹¹⁾ فقد أخذ الخليل عن الأعراب.

2- صلة أهل البادية (الأعراب) والحضر.

ثالثاً: إنَّ السَّماع يختلِف كثرةً وقلةً فماذا يصنع بالمسموع الفرد أيقبلُ ويحتج بهأم لا ؟ ⁽¹²⁾

من مصادر النحو:

من الأصول التي اعتمدت عليها المدرستان:

أولاً: السَّماع:

إنَّ علماء النحو عنوا عنايةً فائقةً بالأصول النحوية ، ومن المصادر السماعية ، القرآن الكريم وقراءاته والحديث النبوي الشريف ، وكلام العرب ، شعرهم ونثرهم والاستشهادُ بهاعلى القواعد النحوية وتوجيهها وإيراد أقوال العلماء فيها وبيان مواقف البصريين والكوفيين فيها.

لذلك يُعدُّ السَّماعُ الأصلُ الأول من أصول اللغة والنحو وتأتي أهمية السَّماع من أمور ثلاثة هي: ⁽¹³⁾

1. الدليلُ إلى القاعدة قبل استخراجها .

2. الشاهدُ على صحة القاعدة بعد ذكرها.

3. الطريقُ الأقوام التي تعرف طبيعة اللغة .

والسَّماعُ واحدٌ من الأصول التي اعتمدها البصريون والكوفيون ، فلم يقتصر على فئة نحوية دون الأخرى ، فالبصريون قد سمعوا اللغة ، كذلك الكوفيون ، ثم استنبطوا الأحكام ووضعوا القواعد ، والكلُّ يعلم ما لأهل البصرة من السبق في ذلك بحكم أسبقية ظهور المذهب البصري ، وقد تشدَّدوا في الأخذ ، فلم يسمَّعوا إلا من الفصحاء شروط مشدَّدة . حيث كانوا لا يأخذون إلا من الثقات من الرواة ، أو فصحاء الأعراب ، وكذلك حدِّدوا القبائل والتي كانت تقطن بوادي ووسط وشرق الجزيرة. ⁽¹⁴⁾ ويبدو أنَّ القبائل لم تكن على درجة واحدة من الفصاحة والبلاغة ومن هنا يجب التحزُّب على كل مسموع ، فإذا كان في القبائل

العربية الخالصة التي اعتصمت بالبادية ، وتحصنت بالصحراء من عاديات اللكنة والعجمة أخذ بهذا المسموع ، ويُرفض إذا كان من مصدر غير الذي ذُكر.

ولأن اللغة حيةً متطورة يعتريها ما يعتري الأحياء من التغيير لذلك نستطيع القول: «بأن اللغة كائنٌ حيٌّ لا يخضع للقوانين الجامدة». وكان النحاة يسمون المسموع (الفصيح) ويقصدون بذلك الاستعمال إذا ورد بشيء ، لأنَّ السَّماع يبطل القياس.⁽¹⁵⁾

ومن مصادر هذا المسموع الآتي:

1. القرآن الكريم وقراءاته.
2. الحديث النبوي الشريف.
3. كلام العرب الفصحاء شعراً ونثراً.⁽¹⁶⁾

أولاً : القرآن الكريم وقراءاته :

القرآن الكريم : هو كتابُ الله المُعجَزُ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد تكفل الله تعالى بحفظه في قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .⁽¹⁷⁾ ليس هنالك كتابٌ نال ما ناله القرآن الكريم من التوثيق والعناية والحفظ والدراسة، فهو النَّصُّ الصحيحُ المجمعُ على الاحتجاج به في اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة، فليس هنالك شكٌ في أنَّه ذروة الفصاحة في أنقى أصالتها.⁽¹⁸⁾

لذلك اتفق العلماء على أنَّ القرآن الكريم، هو الأصلُ الأولُ من أصول الاستشهاد في اللغة والنحو، لأنَّ لغة القرآن من أفصح لغات العرب وأسهلها، فجعلوا القرآن الكريم أول مصادر السَّماع وأجمعوا على أنَّه مصدر رئيس من مصادر الاحتجاج والاستشهاد باللغة، فهو أوثق نص يمكن الاعتماد عليه ؛ لما هيأ الله له السلامة والحفظ.⁽¹⁹⁾

المعروف، أنَّ النحو العربي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم ، وذلك عندما تفتش اللمح في الألسنة، ثم تسرَّب إلى القرآن الكريم. وهكذا نشأ النحو، حفاظاً على ألفاظ القرآن من الخطأ واللمح ثم أصبح القرآن الكريم بعد ذلك من أهم مصادر السَّماع.

إنَّ من إعجاز القرآن الكريم العظيم وخلوده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أن هيأ مُنزله - تعالى شأنه- عقول العلماء وأفكار الباحثين والخوض في ميدانه الرحب لكشف أسراره، وذلك لأنَّ القرآن الكريم كتابُ العربية الأول لمتانة الأسلوب وسمو المعنى وقوة الدلالة، وتمثَّل نصّه بحراً زاخراً بالظواهر اللغوية والقضايا النحوية قد توافر علماءها على خدمة القرآن الكريم ، وقد ظهرت مؤلفات كثيرة، درست النَّصَّ القرآني من جوانبه كافة لإبراز معانيه وتجليته مشكله وتأصيل قواعد النحو ، ثم وقفت من العلماء بعد ذلك جهودها البارعة على إعراب القرآن.⁽²⁰⁾

لهذا نشأ النحو العربي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم ، وذلك عندما تفتش اللمح في الألسنة ثم تسرَّب شيئاً فشيئاً إلى نص القرآن الكريم ، وقصة الإعرابي الذي طلب إقرآءه شيئاً من القرآن الكريم في عهد عمر رضي الله عنه تدلُّ على ذلك فعندما سمع القارئ يقرأ⁽²¹⁾ في قوله تعالى: (أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)⁽²²⁾ الشاهد جر اللام في (رسوله)، حيث قال : أوقد برئ الله من رسوله ، إنَّه يكن الله قد برأ من رسوله ، فأنا أبرأ منه فبلغتُ مقالة الإعرابي عمر رضي الله عنه فدعاها وقال « ليس هكذا وبين له أنَّها بضم

(رسوله) » ثم أمر بعد ذلك ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة . و من خلال ما تمّ عرضه نشأ النحو، حفاظاً على ألفاظ القرآن من اللحن ثم أصبح القرآن الكريم تضيّ فصاحته، ثم أجمع النحاة؛ على أن أفصح هذه المصادر وأوثقها ، كتابُ الله عزَّ وجلَّ ، فقد كان القرآن الكريم هو المعين الذي يمدُّ اللغة بما تحتاجه من شواهد ، فكلما تهيّ فصيحةً ولغته صحيحةً آياته متواترةً وهو المصدرُ الأولُ للدراسة النحوية بلا منازع .

إنَّ للنحو علاقةً كبيرةً بالقراءات القرآنية ، فقد كان النحاة الأوائل من القراء فمن البصريين ، عبد الله بن أبي اسحق ، وعيسى بن عمر الثقفي ، وأبو عمر بن العلاء والخليل بن أحمد الفراهيدي. والخلاف النحوي كان متأثراً في بدايته باختلاف القراءات القرآنية واختلاف المصاحف ، ففي الفترة التي سبقت وجود المصحف العثماني ، كان للصحابة مصاحفٌ عدةٌ يقرأ منها أهل الأمصار ، كمصحف علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، مصحف أبي كعب ، عبد الله بن مسعود ، عبد الله بن عباس ، عبد الله بن عمرو بن العاص ومصحف السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها.(23) وسبب إنفراد هؤلاء بمصحف ما قاله أبو بكر بن أبي داؤود؛ إنَّما قلنا مصحف فلأنه خالف مصحفنا هذا من الخط أو الزيادة والنقصان.(24)

قال ابن الجزري : كلُّ قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصحَّ سندُها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردُّها ولا إنكارها ، بل هي من السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها. وحيث أختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن الأئمة المقبولين السبعة أم عمّن هو أكبرُ منهم.(25) والقراءة، هي النطقُ بألفاظ القرآن الكريم ، كما نطقها النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي تختلف عن القرآن ، فالقرآن الكريم يمثّل الأصل وتمثّل القراءات طرق إدارة ذلك الأصل.

قد بيّن الزركشي، في البرهان الفرق بينهما فذكر: أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان ، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز، والقراءات اختلافُ ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف وكيفيةها من تخفيفٍ وتثقيلوغيرها .(26)

الخلاف النحوي كان متأثراً في بدايته باختلاف القراءات القرآنية واختلاف المصاحف ففي الفترة التي سبقت وجود المصحف العثماني ، كان للصحابة مصاحفٌ عدة يقرأ منها أهل الأمصار ، كمصحف علي بن أبي طالب رضي الله عنه ...الخ.(27)

إنَّ أهل البصرة والكوفة عُنوا بالقراءات القرآنية وأولوها محور اهتمامهم ، ومصدر استشهادهم فتارة يصفون القراءة القرآنية بقراءة الجماعة وتارة بقراءة العامة (28)

في ذلك قال سيبويه «وقد قرأ أناس قوله تعالى:(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ) (29) بالنصب و قوله تعالى:(الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي) (30) ولكن أبث العامة إلا القراءة بالرفع.(31)

إنَّ الشفاهة في القراءة هي المعتمدة على غيرها وقد امتنعت القراءة بالقياس المطلق وهذا ليس له أصلٌ في القراءات ؛لأنَّ القراءة يأخذها الأخر عن الأول،لذلك قالوا فأفروا كما علمتمونا،فكانوا يقولون أمهه القراءات«منهم نافع «لولا أنه ليس لي أن أقرأ القراءات لقرأت حرف كذا كذا».هذا يدلُّ على أنَّهم كانوا يأخذون القراءات بحذر شديد.

السَّماع البصري:

كان للبصرة فضلُ صناعة النحو، وهذا ما أجمع عليه علماء العرب الأوائل، وفيها كانت نشأته، وإليها ينسب اثنان من أتباع أئمة النحو وكفاهما فخرًا: هما الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه .
في ذلك يقول ابن سلام: «لأهل البصرة في العربية قدمة، وبالنحو ولغات العرب والغريبُ عناية» (32) وكذلك ذهب ابن النديم: «إِنَّمَا قَدَّمْنَا البصريين أولاً، لأنَّ عِلْمَ العربية عنهم أُخِذَ ولأنَّ البصرة أقدم من الكوفة» (33).

قد انتهج علماء البصرة طرقاً عديدةً لأخذ لغتهم من أفواه العرب، إذن كيف أخذت البصرة هذه اللغة؟

1. كان علماء البصرة دائمي الترحال إلى البوادي طلباً للغة (يتلقون) عن أعرابها. فكانوا يتحرّون في العربي سلامة لغته وسليقته. وأمّا الراوي، فالصدق والضبط. (34)
 2. إذا فالبصريون يعودون لهم فضلُ تثبيت اللغة بعقلانية تامة والمنطقُ الدقيق، لأنهم أخضعوا كلام العرب في أغلب استعمالاته إلى قواعد وقيدوه بشروط وكل ماعدا ذلك أو خالفه وخرّج عنه، حكّموا عليه بالشذوذ وأبعدوه من دائرة القياس والاحتجاج. (35) لا وجود للقياس في وجود السَّماع.
 3. كذلك اعتمد نحاة البصرة أشعار العرب في الجاهلية، كما اعتمدوا أشهر القراءات القرآنية. وقد أكد بعض الباحثين، بأنّ البصريين أخذوا بالسَّماع كما أخذوا بالقياس، ويبدو ذلك واضحاً في ردّهم لمسائل الكوفيين (36) فكيف يقبلون المتنّ من دون سندٍ؟ أي أنّهم يرفضون الشاهد الذي لا يعرفُ قائله.
 4. أمّا إذا خرجت هذه الشواهد عن كلام العرب الشائع المسموع عنهم فهي بلا تردد في عداد الشواهد الشاذة أو الضروريات وعليه، فالأخذُ بها في وضع الأحكام النحوية غير مقبول. (37)
 4. كذلك تقيدها بالمأثور من الكلام الذي يتحرّونه ويسعون إلى تحقيق القاعدة الشاملة منه بعدما يسمعون ما يجمعون وفي أثناء ذلك يخضعون للغات القبائل التي حدّدها أو لهجاتها إلى عملية فرز علمية دقيقة فيختارون أشيعها وأقربها إلى القياس. (38) ثم يعتمدون على كلام العرب يختارون منه الثابت والأكيد وقد وضعوا لذلك معايير ومقاييس أتفق عليها الجمهور هيأن تكون أكثر اللغات شيوعاً وأكثرها وقوعاً في الآثار وأخفها على الألسنة وأجودها في القياس النحوي. (39)
 5. إنّ أكثر ما تميّز به البصريون، ذلك الحرصُ أو التشدّد في الأخذ بكلام العربية. (40)
 6. كذلك اعتمد البصريون على القياس واتخذوا منه أداة لبناء قواعدهم، ممّا جعل مصطلحاتهم أقرب إلى الدقة العلمية حيث جمعوا الكلام العربي وتتبعوه في مواطنه الفصيحة (البوادي) وتمعنوا في أحواله وعملوا على استنباط علله، فأسسوا قواعدهم بناء على منهجهم وما خالفهم أهملوه أو عدّ في باب الشاذ. (41)
- والذي يعنّ النظر في طريقة البصريين عندما تتبّعوا كلام العرب في تلك البوادي والتي حدّدها

البصريون بقبائل معينة مثل هذيل وأسد وكنانة وقيس وقيم وبعض الطائيين في مصادرهم يدرك بلا عناء أنهم أغفلوا الفوارق بين اللهجات العربية واللغة المشتركة للقبائل والتي أخذوا عنها خاصة إذا أن لغة الشعر تكاد تكون واحدة ولا غرابة في ذلك؛ لأنهم تعودوا إقامة المواسم للشعر والأدب وأشهرها سوق عكاظ وكان سبب اجتماعهم للمذاكرة والرواية. كذلك لم يلتفتوا إلى كل مسموع ولم يقيسوا على الشاذ وكثير من قبائل معروفة لذلك أصبح النحو مُحَكِّمًا مقيدًا بشروط مضبوطة. ثم انتقل اهتمامهم إلى القراءات. ويضاف إلى السابق، عني نحاة البصرة والكوفة بالقراءات القرآنية وجعلوها محور اهتمامهم ومصدر استشهادهم، فثارة يصفون القراءة القرآنية بقراءة الجماعة وثارة ينعنونها بقراءة العامة.

إن صلة علم النحو بالقراءات القرآنية وثيقة والعلماء قد انتبهوا منذ وقت مبكر إلى ضرورة التوافق بين القراءات المرورية والقاعدة النحوية، لكنهم اختلفوا في تطبيق هذه المعادلة فرأى بعضهم، أن القاعدة النحوية هي المرجع المعتمد والأساس الذي يُرد إليه كل خلاف، فما وافقه فهو الصواب وما خالفه فهو لحن إلا للضرورة الشعرية وغيرها، بينما يرى الآخرون أن القاعدة وضعت في وقت لاحق وكانت قاصرة على جميع أنواع الكلام وأحوال اللغة لأسباب موضوعية، إذ ليس من شأنها أن تكون مرجعاً وأساساً يحاكم إليه كل قول وتخضع له لغات العرب أجمعين.

يُعد كتاب سيبويه من أقدم ما وصل من كتب النحو وإليه يرجع الدارسون في كل ما يكتبون عن النحو وأصوله، يقول المبرد (ت 285): «لم يُعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه». يقول أبو عثمان (أبو الطيب اللغوي ت 351) مُوجِّهاً كلامه لتلميذه الأخفش «من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى»⁽⁴²⁾ يقول أبو الطيب اللغوي فيه: «هو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل. وألف كتابه الذي سماه الناس (قرآن النحو)»⁽⁴³⁾ ويقول السيرافي (ت 368): «وعمل كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد قبله، ولم يلحق به من بعده»⁽⁴⁴⁾.

إن القرآن الكريم وقراءته كانتا مصدرًا مهمًا لسبويه حينما وضع ودون الأصول. ولقد استقر في وعي الأجيال الإسلامية المتعاقبة وأدبياتها أن القرآن الكريم حجة في اللغة العربية، والعلماء أجمعوا على أنه أفصح مما نطق به العرب وأصح نقلاً، وأنه نزل بلسان عربي مبين، ولا ينكر أحد أنه بلغ من الفصاحة ذروته وأنه أصدق نص لغوي نظراً أحيط به جمعه من شروط وضوابط تجعل الثقة كاملة لا يشوبها شك في أنه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولذا فهو أجدد المصادر اللغوية التي يعتمد عليها.

يقول السيوطي: «أما القرآن فكل ما ورد أنه قُرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء أكان متواتراً أم أحاداً أم شاذ وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف معروفاً، بل ولو خالفته يحتج بها وأن لم يجز القياس عليه»⁽⁴⁵⁾.

يقول الله عز وجل: (مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (46) والنص القرآني هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به في اللغة والنحو ولم يتوافر لنص من النصوص ما توافر للقرآن الكريم من تواتر رواياته وعناية العلماء بضبطها وتحريها متنًا وسندًا وأقر النحاة بأنه كلام أحرعلى كلام العباد فكلّموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون.⁽⁴⁷⁾ من هنا ظهرت شواهد القرآن الكريم في كتب النحو منذ

سيبويه، كان يوردُ شواهدَ القرآن الكريم مقرونةً في الأغلب الأكثر ممَّا ورد عن العرب من شعرٍ أو نثرٍ، مبتدأً حيناً بالقرآن وآخر بالشعر أو النثر، وحيناً بأمثلة يقتبسها ممَّا صحَّ عن العرب.⁽⁴⁸⁾

ليس وراء ذلك إلا توثيقُ للنصِّ القرآني وإقرارُ بحجته. والشرائحُ في الأمر لم يقتصرُوا في الاستشهاد على النصِّ القرآني الموحَّد، بل صمَّتُوا إليه قراءته، وكما أسلف الزركشي، أنَّ القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان.

مصدرُ القراءات عند سيبويه وبعض البصريين:

يقول ابن الجزري: إنَّ سيبويه أخذَ القراءةَ عن أبي عمرو بن العلاء ويظهرُ إنَّ صحَّ ذلك أنَّه لم يأخذها عنه مباشرةً، وإمَّا أخذها عن بعض تلاميذه، إذ نراه في الكتاب لا يذكرُ له مسألة إلا عن طريق الرواية عن بعض التلاميذ وخاصة يونس بن حبيب ممَّا يدلُّ على أنَّه لم يلقَّه، ونظنُّ أنَّه حمل قراءة الذكر الحكيم عن هارون بن موسى النحوي الذي يتردد ذكره في الكتاب مع بعض القراءات التي يروونها، كذلك عن أستاذه الخليل وغيره من أئمة القراءات في البصرة مثل يعقوب بن اسحق الحضرمي وهو أحدُ أئمة القراءات العشر⁽⁴⁹⁾ وقبل الدخول في طرق الأخذ عند سيبويه لأبد من التوضيح في موقف البصرة من القراءات.

يرى الباحثان: من الإنصاف أن يُوضَعَ حدٌ فاصلٌ بين متقدمي نحاة البصرة ومتأخريهم من حيث موقفهم من هذا الاتهام الذي وجَّه لهم بأنهم انتهجوا منهج التضعيف في القراءات؛ لأنَّ متقدمي البصرة كعبد الله بن أبي اسحق الحضرمي (ت117)، عيسى بن عمر (ت149)، يونس بن حبيب (ت182)، الخليل بن أحمد (ت175) وسيبويه (ت180) لم يقع منهم مايمسُّ القراءات بل جاءت مؤيِّدة ومناصرة للقرآن وقراءاته، أمَّا الخليل وسيبويه فأصدَّق مصدر يوضِّح موقفهم من القراءات التي خالفَ ظاهرها ماقدَّموه من قواعد (كتاب سيبويه) كانوا يلتزمون لها تخريجا أو تأويلا ووجوه تحوُّل دون ردِّها. فهم احترموا الشاذة فضلا عن المتواترة، وهذا ماعرَّز استدلالهم وشواهدهم القرآنية.

ممَّا يؤكِّد ذلك قول الخليل حينما تعرض لقراءة الأعرج في قوله تعالى: (يا جبال أوبي معه والطير) (50). قال سيبويه: (من قال يا زيد والنضر فنصب، فإنَّما نصب؛ لأنَّ هذا كان من المواضع التي يردُّ فيها الشيء إلى أصله، فأما العربُ فأكثر ما رأيناهم يقولون: يا زيد والنضر حيث قرأ الأعرج (والطير) أمَّا رأي الخليل رحمة الله عليه قال «هو القياس»، كأنه قال ويا حارث ولو حمل الحارث على (يا) كان غير جائز لأنك لا تنادي اسما فيه الألف واللام ب(يا) ولكنك أشركت بين النضر والألف واللام ب(يا)، ولم تجعلها خاصة للنضر (51) فالخليل يرى أنَّه عندما تعطف اسما فيه الأول واللام على المنادى المبني فالقياس عنده الرفع؛ لأنَّ الاسم التابع للمنادى المرفوع المبني مناد مرفوع مثله لأنَّ العطف يقتضي التشريك بين الاسمين التابع والمتبوع، وأمَّا سيبويه فكان الأصل عنده عدم الطعن في القراءة وإنَّ خالفت قياسه النحوي، فلم يطعن في قراءة ولم يصفها بالقبح أو اللحن أو الرداءة، وأقصى جهده وصف القراءة بأنها قليلة. (52) لم يكن موقفُ متأخري البصريين موقفا منهجيا مقبولا كما كان عليه متقدموهم، فنراهم يحتجون بها حين تتفق مع أصولهم، وتتساير قواعدهم دون أن تتعارض مع ما وصلوا إليه من قواعد فيحكمون عليها بالرفض والإنكار ويعدُّ أبو الحسن الأوسط هو أول من فتح باب الطعن على القراءات القرآنية التي خالف ظاهرها قياسه النحوي.

كذلك كانت لسبويه، طرُق كثيرةٌ للأخذ بالقراءات لتقوية القاعدة النحوية، كما سيتضح في هذا المثال، تقول: «أتاني زيدُ الفاسقِ الخبيث». وهنا يُفهم من المثال أنَّه أراد شتمه دون التصريح بذلك. ويقول

مدللاً بقراءة من القراءات لآي الذكر الحكيم، وبلغنا أن بَعْضَهُمْ قرأ هذا الحرف نصباً: من قوله تعالى: (وَأَمْرَأَتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ) (50)، أي لم يجعل الحماله خبراً للمرأة، ولكنَّ كأنه قال أذكرُ حمالَةَ الحطبِ شتْمًا لها. على أنها مفعول به منصوب. أي الحمالَة.

يقول في موضع آخر كذلك، ودَّ لو تأتته فتحذُّته والشاهد (ودَّ، ودَّ) يقول سيبويه «والرفع في «ودَّ» جيّد على معنى التمني وذلك في قوله تعالى: (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) (51). لذلك قرَّر جواز رفع الفعل المضارع ونصبه إذا وقع في جواب (لو) بعد الفاء.النصب فيدهنوا.

مما سبق يتبيّن، أن سيبويه قد استخدم كثيراً هذه القراءات، كذلك كان يراها موافقة للأصول العربية أو للغات العرب الذين يستشهد بكلامهم وأساليبهم من شعرٍ ونثرٍ، فإن بَعُدَ بَعْضُهَا عن الاستعمال أو المشهور، وإن ورد ما خالف القياس واللغة الفصحى أرجعه إلى إحدى لغات العرب وذكر المتكلمين هذه اللغة وسموها كلغة هذيل وتميم ونحوهما، إنها على لغة من لغات العرب، أو سمعها من عربي. (52) والذي يبدو للباحثين أن سيبويه أحياناً يتأول هو أو أحدُ شيوخه ما ورد في القراءة المخالفة لسوادِ المصحف أو القراءة المشهورة بوجه من الوجوه الحسنة حتى لا ينكرها.

أما الدكتورة خديجة الحديثي، فتقول: «أنَّ موقف سيبويه من القراءات موقفٌ معتدلٌ وقد استشهد بها واستخلص منها القواعد وقاس عليها كلام العرب أو قاسها على كلام العرب، ونظر إليها نظرتُه إلى الآيات الواردة في المصحف العثماني، فهو لم يخطئُ قراءة ولم يحسن قارئاً ولم يرجح قارئاً من القراء على غيره بل كان يؤيدُ القراءة أو يؤولها أو يرجحها في غير أن يعتمد شخصية القارئ في ذلك، وجُلُّ اهتمامه كان موجهاً إلى ما يرد في القراءة من ألفاظ وتعبيرات وإلى صحتها أو مخالفتها للمشهور، وافقتُ كلام العرب أو خالفته». (53)

السَّماعُ الكوفي:

إنَّ الحركة اللغوية في الكوفة - كما يرى صالح بلعيد كانت بذرةً في حقيقتها لنشأة علم الجرح والتعديل، وكانت دعوةً غير صريحة لتيسير النحو، وتحريره من قبضة القوانين الصارمة، وهم كانوا يعتقدون أنَّ اللغة تنشأ وتنمو إذا تحررت وتقيدها بقواعد صارمة وقوانين مُشددة إجحاف في حقها. (54) بالرغم من ذلك فقد أخذ الكوفيون اللغة والنحو عن البصريين وليس أحدٌ من أعلامهم إلا وقد تتلمذ على يد بصري.

اهتمامُ الكوفة من النحاة بالسَّماع، كان أكثرَ فيما عرف عند البصريين أمثالهم، تلقى الكوفيون النحو البصري عن عيسى بن عمر، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب فقد درس الكسائي، كتاب سيبويه عن الأخفش، كما وقف عليه الفراء واحتفظ لنفسه بنسخة منه وُجدت تحت وسادته.

لقد انتهج الكوفيون كذلك طرقاً لأخذ لغتهم عن الأعراب والبصريين فكيف كانت هذه الطرق؟

1. أمهتُ الكوفة وقفوا على النحو البصري مشافهةً ومناقلةً ولا بد من أنهم قد أفادوا من أعمال البصريين. واهتمامُ أهل الكوفة بالسَّماع كان أكثرَ ممَّا عُرف عند البصريين أمثالهم وبصورة أوسع فقد أخذوا شواهد اللغة من كل مسموع وبنوا عليه وقاسوا وجعلوا الشاذ جائزاً عليه، وتعدوا على ذلك إلى القياس على ما خالف الأصل. (55)

2. فأخذوا بشكل غير محدود عن الأعراب أينما وجدوا وتوسَّعوا في الأخذ بالقراءات وما يعرض لها من مسائل وفي نظرهم كل ما يثبت عن العرب تكلموا به فهو مقبولٌ وصحيحٌ ولو كان شاذاً.⁽⁵⁶⁾

3. ثم وقفوا أُمَّة الكوفة على النحو البصري شفاهةً أو مناقلةً ولا بد من أنهم قد أفادوا أعمال البصريين وكان لهم منها نقط ارتكاز اعتمدوا عليها في منهجها.⁽⁵⁷⁾
قال أبو الطيب اللغوي: «وكذلك أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين ولكن أهل البصرة تحفظوا من الأخذ عنهم، لأنهم لا يرون الأعراب الذين أخذوا عنهم حجة». (58) وكان أخذهم عن البصريين مبكراً. يرى الباحثان:

4. إنهم أخذوا شواهد النحو عن سكان الحواضر كما أخذوها عن سكان البراري دون قيود ولم يهتموا بصدق الرواية أو صدق المصنوع في نحوهم للراوي مما كان السبب بزج كثير من المنحول في شعرهم وكانوا إذا سمعوا شاهداً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبنوا له فروعاً وأبواباً وقاسوا عليه؟

موقف الكوفيين من القراءات:

يختلف موقف الكوفيين عن البصريين من القراءات القرآنية والسَّماع خاصة، حيث كانوا يجيزون ويحتجون بها ويعقدون على ما جاء فيها كثيراً من أصولهم وأحكامهم لا يرفضونها ولا يغلطونها؛ لأنها صوابٌ عندهم.⁽⁵⁹⁾ يرجع اهتمامات الكوفيين إلى اعتبارات عدة، من بينها:

1. إن الكوفة كانت مهبط الصحابة، ففيها نزل عددٌ كبيرٌ منهم وهم أكثرهم عربٌ لا يهتمون في فصاحتهم، لذلك أصبحت الكوفة موطن القراءات، وظهر ثلاثه من أربعة قراء كانوا أُمَّة القراء في العراق وهم: عاصم بن أبي النجود وحمزة بن حبيب الزيات، وعلي بن حمزة الكسائي ومؤسس هذه المدرسة وإمامها من أُمَّة القراء، الكسائي وثقافته عربية خالصة، فهو من الذين سلكوا مسلك القراء في اعتماده على النقل واعتماده بالرواية، كذلك هو من الذين يرون وجوب اتصال السند للقراءة ويعتدون كل الاعتداد بما روى من قراءات، في دراسة العربية، لأنها من القرآن وما كان من القرآن أجدرٌ بالتفصيل وأولى بالقبول.⁽⁶⁰⁾

2. إنَّه طابع الكوفيين في دراستهم ومن مظاهر هذا اعتنائهم بالقرآن وصلة الكسائي واضحة، لأنَّه من أُمَّة القراء وقد اشتهر الكوفيون في ردِّهم لبعض القراءات ومنها المتواترة ووصفها بالرداءة والشذوذ وبالقبیح أحياناً فمن المواقف التي تثبت تقبُّل الكوفيين للقراءات وعدم ردها أو تأويلها.

كان الكسائي يقرأ قوله تعالى: (لَمْ يَطْمِئِنَّ)⁽⁶¹⁾ بضم الميم وكسرهما وقد كان الكسائي يجمع بين القراءتين لتلا يخرج عن هذين الأثرين.⁽⁶²⁾

كما كان القراء يجيز إدخال (الفاء) والغائها من خبر (إن) إن (كان) اسمه مما يوصل.⁽⁶³⁾ كما في قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفَرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ) فهي من قراءة عبد الله بن مسعود قال تعالى: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفَرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ) .⁽⁶⁴⁾ الشاهد فإنه ملاقيكم حيث جوز بالغائها. وهذا الموقف من

الكوفيين هو الشائع بين النحاة والنحويين، وهذا هو نقيض الموقف البصري منها من حيث ردها وعدم الاحتجاج بها.

يقول المخزومي: في حديثه عن مصادر دراسة الكوفة عند الفراء: « والقراءات المختلفة (أي المصدر الثاني) وإن شُدَّت في نظر نحاة البصرة، أي القراءة، يستشهدُ بها ويصوبها ويحتجُّ بها». (65) فيما يرى: عبد الله الخثران: إنَّ هذه الفكرة عن موقف الكوفيين من القراءات مرَّدها إلى البركات الأنباري في كتابه الإنصاف، ويرى أنَّ الرجوع عن موقف الكوفيين يثبت أنَّ هذا الفهم غير صحيح على إطلاقه، فالفراء الكوفي قد شارك البصريين في رفض بعض القراءات المتواترة. (66) وقد شاركهم في رد قراءة حمزة بجر(م) في (الأرحام) في قوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِوَالْأَرْحَامِ) (67)

حيث قال عن جر(الميم) في (الأرحام) فيه فبح، لأنَّ العرب لا تردُّ مخفوضاً على مخفوضٍ، وإنما يجوز في الشعر لضيقه. (68) وللفراء مواقف كثيرة يرد فيها قراءة أو ينعته بالشذوذ وكذلك للكسائي مواقف وهو الذي قرأ كتاب سيبويه فمثلاً في قوله تعالى: (قَدْ سَمِعَ) (69) حيث قال من يبيِّن الدَّال عند السين، فلسأنه أعجمي ليس بعربي (70)، فقال أبو حيان: « ولا يلتفت إلى هذا القول فالجمهور على البيان، (71). أي إظهار الدَّال وعدم إدغامها في السين .

لقد كان الفراء يحذو حذو شيخه، ويتسم خطاه في ذلك فتراه مرة يردُّ قراءة متواترة ويتسبب الوهم إلى القراء بأنهم لم يكونوا متقنين وفطنين، ومن هنا نلاحظ أنَّ الكوفيين وعلى رأسهم الكسائي أكثروا من تقييح قراءة متواترة ويصف الفراء أحداها بالرداءة وأخرى بالوهم والشذوذ. يرى الباحثان: فكل ذلك يدلنا على أنَّ الفراء لم يلتزم كما التزم سيبويه حيث كان يقول احتراماً وتقديراً وتعظيماً « إنَّ القراءة سنة ».

يقول عبد الله الخثران: إنَّ موقف الكوفيين من القراءات موقفين:

1. موقف يرفض القراءة ويعدها شاذة مما يجعل قول أبي البركات الأنباري- ومن تبعه، إنَّ الكوفيين يقبلون القراءات ويحتجون بها، بجانبه الصواب. (72)
2. الموقف الثاني، المعروف عن المذهب الكوفي- كما هو مشهور؛ لواؤه بيد السماع، لا يخضَّر له دفة، ولا ينقض له عهدٌ ويهون على الكوفي نقض أصلٍ من أصوله وينسف قاعدة من القواعد ولا يهون عليه إطراح المسموع على الأكثرين. (73)

يرى الباحثان: أنَّهم قد سلكوا طريقاً قيِّدوا بهوجه حريتهم تجاه المسموع ولم يتصرفوا فيه، ولم يعملوا بعقولهم - وإن كانوا قادرين على ذلك - رُحماً احتراماً له وتقديساً لمادته من قرآن وقراءاته وغيرهما من المسموع العربي، هذا لا يعني أنَّهم وقفوا دون حراك فقد رأينا كيف كان الفراء وأستاذه الكسائي يردُّون بعض القراءات ويصفونها بالشذوذ أحياناً. وقد سئل الكسائي في مجلس يونس عن قولهم « لا ضُربنَ إليهم يقوم » لم لا يقال « لأُضربنَ إليهم يقوم »؟

فقال: « هكذا خلقت ». (74)

يقول عبده الراجحي: « ولسنا نعرف تعبيراً أدلَّ على الوصف المحرَّص من تعبيره « أي هكذا (خلقت). فتعبير إجابته أو تعليل إجابته بقبوله هكذا خلقت يدلُّ على أنَّ الظواهر اللغوية عند الكوفيين

تتقلُّ ولا تُنطقُ ولا تُفسرُ بعمل عقلي ، فهو بهذا يسير على خطى قومه في النحو وما تميل إليه من التتبع اللغوي ، وعدم التأويلات البعيدة .⁽⁷⁵⁾ ، فهم يحترمون كل ما جاء عن العرب ، ويجيزون للناس أن يستعملوا استعمالهم ، ولو كان الاستعمال لا ينطبق على القواعد العامة ، بل يجعلون هذا الشذوذ أساساً لوضع قاعدة عامة ، قال السيوطي : « في بغية الوعاة : قال ابن درستويه إنَّ الكسائي كان يسمعُ الشاذ الذي لا يجوز إلاَّ في الضرورة ، فيجعله أصلاً ويقيس عليه . قال السيوطي نقلاً عن الأندلسي : « الكوفيون لو سمَّعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول ، جعلوه أصلاً واعتمدوا عليه بخلاف البصريين » .⁽⁷⁶⁾ وممَّا يدلُّ على عناية الكوفيين بالسَّماع واعتمادهم عليه واحترامهم له ما ذكره (أبو البركات الأنباري) في الإنصاف فقد بيَّن أنَّهم اعتمدوا على السَّماع وحده في تسع وعشرين مسألة اعتمدوا عليه بجانب القياس ، في حين أنَّ البصريين احتجوا بالنقل وحده في خمسة عشرة مسألة فقط .⁽⁷⁷⁾

لذلك كانوا يقيسون على القليل والنادر والشاذ ، حيثُ أجازوا للناس أن يستعملوا استعمالهم ولو كان استعمالهم قليلاً لا ينطبقُ على القواعد العامة التي توصلُ إليها البصريون ، بل يجعلون هذا القليل النادر أصلاً وأساساً لوضع قاعدة عامة . إنَّ احترام الكوفيين للسَّماع ، جعلهم يُجرون الكلام في الغالب على حسب الظاهر والتخفيف والتقليل من صور الحذف والتقدير ، لتوسيع القواعد الخارجة عن القياس ، كما عند البصريين ؛ لذا قلَّ عندهم ما كثر عند البصريين من التأويل والحمل على الشذوذ وكانوا يدرجون النصوص تحت القاعدة بواسطة التأويل .⁽⁷⁸⁾

إنَّ هذا يدلُّ على أنَّ الكوفيين لم يتمسكوا بالحدِّ الزماني أو المكاني الذي وضعه البصريون ، ولم يتقيدوا به بل لم يحترموا القواعد والأسس التي وضعها البصريون للنحو العربي وهم أساتذتهم . على ذلك يمكن القول بأنَّ التأويل ضرورة يحتاج إليها النحو في بعض أبوابه ، وقد يكون ذلك مقيداً في تفسير بعض المسائل ، لأنَّ المعنى في بعضها لا يتضح أو يفهم مضمونه إلاَّ بالتأويل . ولا شك في الإحكام التام الذي التزم به البصريون ، ولجأ نحاة البصرة إلى التأويل ، لأجل أطراد قواعدهم وإدخال جميع ظواهر اللغة في إطار واحد .

بعض النماذج التي اختلف فيها البصريون والكوفيون :

ومن النماذج الذي اختلف فيها الفريقان أي البصريون والكوفيون (نعت الاسم الموصول بالمعرفة) حيثُ أجاز الكسائي والفراء من الكوفيين (نعت الاسم الموصول بالمعرفة)⁽⁷⁹⁾ قال تعالى : (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ)⁽⁸⁰⁾ أجاز الكسائي والفراء أن يكون (أَحْسَنَ) نعتاً للذي في موضع جرٍّ وأجازا (مررت بالذي أخيك ، حيث ينعتان الذي بالمعرفة) .⁽⁸¹⁾ ويكون (أَحْسَنَ) مرفوعاً .

لكن البصريين لا يجوزون مذهب الكسائي والفراء ؛ لأنه نعت الاسم قبل أن يتم المعنى ، وذهب إلى أنَّ (أَحْسَنَ) فعل ماضٍ داخل في صلة الذي⁽⁸²⁾ وزعم البصريون أنَّهم لا يعرفون (الذي) إلاَّ موصولاً .⁽⁸³⁾ وحكى سيبويه عن الخليل أنه سمع « ما أنا بالذي قائلٌ لك شيئاً » والذي يرجِّحه الباحثان ما ذهب إليه البصريون وسيبويه حيثُ أعربوا (أَحْسَنَ) فعل ماضي واقع صلة للموصول وفاعله ضمير يعود على (موسى) أي تماماً على الذي أحسن .⁽⁸⁴⁾

هنالك فرق كبير بين السَّماع والرواية ، فالسَّماع أخذ مباشرة للمادة اللغوية عن الناطقين بها ، الرواية فهي ما يرويه العالم عن عالم آخر وجيل سابقٍ من العلماء . قد لُوِّحظ أنَّ البصريين وضعوا حدوداً زمانية ومكانية . حيثُ تمثلت حدودهم المكانية في قبائل ست هي قيس ، وقيم ، وأسد ، هذيل ، كنانة وطى بينما لم يضع الكوفيون حدوداً زمانية و مكانية .

إذن يعتبر السَّماعُ هو أصلُ التقعيد النحوي والصرفي، وما سببُ اختلافِ النُّحاةِ إلاَّ اختلافُ ناتجِ عن مسموعٍ قد ورد بخلاف ما قعدوه، أو ما اتفقوا عليه، لهذا الجأهم هذا المسموعُ لإعادة النظر في ذلك التقعيد بما يتناسبُ والمسموع. لذلك شدُّ البصريون في المسموع وعدم تسليمهم بكل ما سمعوا وكانوا أحياناً يلجأون إلى التأويل حيث لا يتفقُ المسموعُ مع قواعدهم، بينما توسَّع الكوفيون في الأخذ عن المسموع للحد الذي جعلهم يقيسون حتى على الشاذ والنادر. وللسَّماع عند المدرستين دورٌ كبيرٌ ومؤثراً في تقعيد نحوهم وقد دفعهم ضبط القرآن لتقعيد مفهومه بضوابط الفصاحة المتمثلة في قبائل معينة وزمان محدّد مع الاطراد والغلبة حتى يتحقق فيه معنى الحجة والثبوت ويبعد عن تهمة التأثير بالأعاجم. وقد كان السَّماعُ عندهم مرجح الأدلة كلها ومن هنا أصبح العالمُ الذي يسمَعُ من العرب ويشافهمهم له ميزة عن غيره، فقد روى أن الكسائي سأل الخليل بن أحمد من أين علمك هذا فقال «من بوادي الحجاز ونجد .. لذلك بذلوا مجهودات جبّارة وغبية جهدهم ونفيس أوقاتهم في جمع المادة المسموعة وحفظها وصيانتها ووضعوا لذلك ضوابطاً وأصولاً يحتذون بها، لتمييز غثها عن سمينها، ولمّا لم يكن السَّماعُ بدرجة واحدة من القوة والثقة عندهم قاموا بتقسيمه، ولم يرتض نحاة البصرة والكوفة مسموعاً وفق ضوابطهم في منهجهم في السَّماع، إلا إذا كان المسموع خارج الحدود الزمانية والمكانية (للبصريين) إمّا رفضوا المسموع مجهول القائل وكان رفضهم بمعيار الموافقة أو المخالفة.

الخاتمة:

الحمد لله الذي أتمَّ بنعمته الصالحات وأعانا وجعل منا أمة مسلمةً تسعى لمعرفة المزيد في كتابه عزَّ وجلَّ، وسنة نبيِّه عليه الرحمة عليه أفضل الصلاة والسلام. ووهبنا لغيره عجز عنها الأولون والآخرون فهم أغوارها، بالرغم من مجهودات العلماء للحفاظ على كتاب الله من التدليس والتحريف، وسهّل علينا أمره بأن نزل على سبعة أحرف؛ لتباين القبائل العربية واختلاف لهجاتها لكن جمعها دين واحد؛ إنَّه القرآن الكريم. من خلال هذه الورقة والتي بعنوان السَّماع بين البصريين والكوفيين -دراسة تطبيقية في القراءات القرآنية (أمودجا) حيثُ توصل الباحثان إلى بعض النتائج المهمة:

1. إنَّ هنالك تضاربا وتباينا كبيرا بين المؤلفين في التحديد الدقيق لبداية الخلاف النحوي وأشهرها على الإطلاق ما كان بين الكسائي وسيبويه بما يعرف بالمسألة الزنبورية .
2. لقد كان للخلاف صورٌ ومظاهرٌ عديدةٌ من بينها المناظرات والمجالس واللقاءات .
3. قد أسهم الخلافُ النحوي في السَّماع في تطوُّر النحو العربي.
4. تشدُّدُ البصريون في تطبيقهم شروط الفصاحة حتى يجعلونه خاليا من الشوائب.
5. تؤكد مجمع الدراسات النحوية وتطوُّرها إلى بروز اتجاهين اتجاه تمثله البصرة واتجاه آخر تمثله الكوفة.
6. لاشك في أنَّ القرآن كان الباعثُ والمحركُ للدراسات اللغوية فكل ما أنتجه من تراث لغوي كان منبعه القرآن الكريم.
7. حقيقة الطعن لم يبدأ في القراءات عند البصريين إلاَّ عند علماء القرن الثالث الهجري وكان في مواضع محدودة.
8. لقد اعتمدت المدرستان السَّماع واستنبطوا الأحكام ووضعوا القواعد، الدليل على ذلك لقد احتجَّ الكوفيون في تسع وعشرين مسألة، بينما احتجَّ البصريون في خمس عشرة مسألة .

الهوامش:

- (1) ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم ، لسان العرب، معجم، (سمع) 3/335.
- (2) الزبيدي ، تاج العروس ، تحقيق عبد العليم الطهطاوي ، مطبعة حكومة الكويت للعام 1984م ، ج 21 ، ص 223 ، ص 224.
- (3) سورة البقرة الآية (7).
- (4) الزبيدي ، تاج العروس ، 21/223 ، ولسان العرب 3/335.
- (5) سورة ق الآية (37).
- (6) ابن منظور، لسان العرب، 3/335، د. تمام حسان ص 91.
- (7) الخليل بن أحمد، العين، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي (د.ط) (د.ت) (س م ع) 1/348 ، والتاج 21/223.
- (8) السيوطي - جلال الدين ، الاقتراح في أصول النحو، ت عبد الرحمن اليماني وآخرين و(د،ت)- ص 14.
- (9) الأنبا ري- نزهة الألباء في طبقات الأدباء- تحقيق د. إبراهيم السامرائي- دار النشر، مكتبة الأندلس- بغداد- في العام 1972م- ط2- ص 55.
- (10) الأنبا ري ،(أبوالبركات الأنبا ري) ، لمع الأدلة ، تحقيق سعيد الأفغاني ، مطبعة الجامعة السورية ، 1957م ، ص 81.
- (11) السيوطي ، في علوم اللغة وأنواعها ، دار أحياء الكتب العربية ، عيسى ألبابي الحلبي وشركاؤه ، ج 1 ، ص 121.
- (12) السيوطي ، الاقتراح ، ص 22.
- (13) خديجة الحديث ، الشاهد وأصول النحو، دار النشر، الكويت (دون تحقيق)، 1974م، ص 134. وقام حسان، الأصول ص 112.
- (14) عبد الجبار علوان ، الشواهد والاستشهاد في النحو ، دار النشر جامعة بغداد ، بغداد للعام 1976م ، ص 18.
- (15) عبد العال سام ، المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة ، دار النشر بيروت ، للعام 1980م ومؤسس الرسالة للطباعة والنشر ، ص 303.
- (16) مكرم عبد العال سام مكرم ، الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي 3 ، دار النشر لبنان ، ط 1 - ص 434.
- (17) سورة الحجر ، الآية (9).
- (18) حسانين عفاف محمد حسانين ، أدلة النحو ، دار النشر ، المكتبة المصرية ، مصر ، ط1، ص 15.
- (19) علوان عبد الجبار علوان ، الشواهد والاستشهاد في النحو ، ص 18.
- (20) عماد مجيد العبيدي ، الخلاف النحوي في كتب إعراب القرآن حتى نهاية القرن الثامن الهجري ، دار غيداء للنشر والتوزيع ودائرة المكتبة الوطنية ، عمان ، الأردن الطبعة الأولى 2011م ، ص 15 متفرقة.
- (21) الانباري ، الوقف والابتداء، تحقيق،(محمد الدين عبد الرحمن رمضان)، دار النشر ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق للعام ١٩٧١

- (22) سورة التوبة الآية 3
- (23) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، 1/19.
- (24) السيبتاني، المصاحف، تحقيق آرثر جفري، دار النشر، المطبعة الرحمانية، مصر، ط 1 للعام 1355. ص 50.
- (25) شمس الدين الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق علي محمد الصباغ، مطبعة مصطفى، القاهرة، المجلد 1، ص 15.
- (26) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 1/318
- (27) نفسه 1/259.
- (28) ينظر، للنحاس، إعراب القرآن، تحقيق د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، ط 3 للعام 1988م، ص 2/19.
- (29) سورة المائدة الآية 38.
- (30) سورة النور الآية (2)
- (31) سيبويه، الكتاب، 1/144.
- (32) ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، المحقق، اللجنة العليا لإعداد التراث العربي، دار النهضة، بيروت، ص 12.
- (33) ابن النديم، الفهرست، تحقيق رضا نجد، طبعة طهران للعام 1971م، ص 5.
- (34) الأفغاني سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو، دار الفكر، بيروت، ص 65.
- (35) د. بلعيد. صالح بلعيد، في قضايا فقه اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، طبعة في العام 1995م، ص 150.
- (36) د. إبراهيم السامرائي، المدارس النحوية، أسطورة وواقع، دار الفكر عمان، ط 1 سنة 1987م، ص 17.
- (37) إبراهيم السامرائي، المدارس النحوية، ص 150.
- (38) د. بلعيد صالح، قضايا فقه اللغة العربية، ص 148.
- (39) بلعيد صالح، قضايا فقه اللغة العربية، ص 148.
- (40) ابن الانباري، نزهة الألباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النشر المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ط 1 للعام 2003م، ص 33-34.
- (41) د. بلعيد صالح، قضايا فقه اللغة العربية، ص 148
- (42) أبو الطيب اللغوي، المغنى، 631 سيوييه، الكتاب، 1/223.
- (43) أبو الطيب اللغوي، المغنى ص 60.
- (44) السيرافي، إخبار النحويين البصريين، تحقيق (احمد حسن مهدي)، دار النشر، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت للعام 2008، ط 2، ص 2.
- (45) السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق محمد حسن، دار النشر، دار الكتب العلمية، بيروت، للعام 2006م، ص 24.

- (46) سورة الأنعام، الآية 38.
- (47) خديجة الحديثي، الشاهد وأصول النحو، الكويت، د.د.ن 1974م، ص 32.
- (48) نفسه، ص 32.
- (49) شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، 1968م، ط1، ص 80.
- (05) سورة سبأ الآية 10
- (51) سيبويه 2/186,187
- (52) سيبويه 1/58
- (53) سورة المسد الآية 4.
- (54) سورة القلم الآية 9.
- (55) شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، 1968م، ط1، ص 80.
- (56) الحديثي، دراسات في كتاب سيبويه، ص 47-48.
- (57) د. بلعيد صالح، في قضايا فقه العربية، سابق، ص 46.
- (58) المرجع السابق ص 181.
- (59) نفسه ص 151.
- (60) د. مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها دراسة اللغة والنحو (د.م) دار النشر دار الطباعة ألبابي الحلبي، مصر ص 330، سابق.
- (61) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النشر المكتبة المصرية، بيروت للعام 2011م، ص 143.
- (62) د. مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، ص 341.
- (63) نفسه، ص 345.
- (64) سورة الرحمن، الآية 56.
- (65) الفراء، معاني القرآن، ص 3/119، سابق.
- (66) نفسه، ص 3/119، سابق.
- (67) سورة الجمعة، الآية 8
- (68) مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، ص 140.
- (69) الخثران عبد الله الخثران، تطور في الدرس النحوي، (د.م)، دار النشر المعرفة الجامعية ط1، القاهرة للعام 1993، ص 225
- (70) سورة النساء، الآية 1.
- (71) الفراء، معاني القرآن، ص 1/232، المسألة في الإنصاف 2/463، المسألة الخامسة و الستون .
- (72) سورة المجادلة، الآية 1.
- (73) الفراء، معاني القرآن، ص 1/232، المسألة في الإنصاف 2/463
- (74) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، الجزء الثاني، ص 3-4

- (75) عبد الله الخثرات ، تطور الدرس ، ص 226.
- (76) مهدي المخزومي ، مدرسة الكوفة ، ص 350 ، وطه الراوي، نظرة في النحو مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق ، 4/319.
- (77) أو لفتح عثمان ابن جني، الخصائص، (ب،ت)، عالم الكتابة والطباعة والنشر والتوزيع، تاريخ النشر 2006، مجلد2 ، ص3/292.
- (78) الراجحي ، النحو العربي والدرس الحديث ، بحث في المنهج (د،م) ، دار النشر ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩، ص٥٩
- (79) السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ط 1 ، 1965م ، ص 2/164...
- (80) السيوطي، الاقتراح ص 236.
- (81) عبد الله الخثران ، تطور الدرس النحوي، (د،م)، دار النشر المعرفة الجامعية ، مصر، 1993م ، ص 231.
- (82) محمد الطنطاوي ، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، (د،م)، دار النشر المكتبة العربية ، مصر ، (د،ت)، ص 143.
- (83) الفراء ، معاني القرآن وإعرابه ، 2/305، إعراب القرآن 1/593.
- (84) سورة الأنعام الآية 154.
- (85) بن جرير الطبري جامع البيان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى، للعام 1324هـ ، 4/159.
- (86) الفراء، معاني القرآن ص 2/107، المقتضب ، 3/197.
- (87) نفسه ، 2/305.
- (88) القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن ، دار النشر ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، لبنان ، 1965م ، ص 7/142.